



الصيام مظاهر وأهداف

الأثم البدني الهدف من الصوم وإن كان وقوعه وارد بدرجات لا محالة. فإن الله تعالى عندما أمر بالصوم في قوله «كتب عليكم الصيام» لم يعلل ذلك بقوله: (لعلكم تتألمون). وإنما قال سبحانه: «لعلكم تتقون» (البقرة: ١٨٣). فجعل سبحانه الصوم وسيلة لنيل التقوى وأداة في اكتساب ملكيتها. لأن التقوى هي الهدف الحقيقي من وراء الصوم، وبتحصيلها تؤتي أكلها بإذن ربها. وهي هدف مشترك بين جميع العبادات وكافة الطاعات، بيد أن للصوم بمظهرية المادي والروحي الأثر الأوسع والأعم في تحصيلها.

ومتزلة الصوم هي أعلى وأسمى مراتب التقوى، لما في الصوم من مخالفة الطبع ومزيد مقاومة الأهواء،

(المائدة: ٨٧)، وإنما أشار جل شأنه إلى مرادة من خلال أمره بالصيام قائلا «رِيئِدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيَسْرَ وَلَا يُرِيئِدُ بِكُمْ الْعُسْرَ» (البقرة: ١٨٥). فليست غاية الصوم الجوع والعطش، إذ لو كانت تلك غايته لكان يكفي فاقد شهية الطعام أن يضيف إلى هذا وقتنا لحين شعوره بالثم المخصصة، أو أن يصوم جل يومه لبلوغ ذلك. لكن المعلوم من الشريعة أن الذي يزيد مدة الصيام متجاوزا سخابة النهار إلى عتمة الليل بلا عذر أثم في فعله، وإن كان يظن بتجاوزه زيادة الأجر أو كمال التقوى.

إن الذي يصوم دون عناء أو مشقة مراعىا شرائط الصيام وأركانها وأدابه: مأجور كالذي يكابد في صومه شيئا من التعب وتغير المزاج، إذ ليس

الصيام في الشريعة الإسلامية له مظهران، أحدهما مظهر مادي يقوم على اجتناب المشغلات من طلوع الفجر وحتى غروب الشمس مع النية. وهذا هو المظهر السلبي للصيام، ومظهر آخر وروحي يتحرى فيه المؤمن الهدف الذي حددته الشريعة من وراء صومه، وهو المظهر الإيجابي له.

لذلك ينبغي على المؤمن قبل شروعه في الصيام أن يعلم مراد الله من صومه، وأن تكون نيته فيه وفقا لإرادة الله منه، فإن الله لا تعنيه حرارة الصيام ومرارته، ولا يعود عليه سبحانه شيء من هزال جسم الصائم وذبوله، لأن أثم الجسم أو حرمانه من الطيبات ليس مقصدا يطلب كما أنه ليس عدوا يحارب. فإن الله قال «لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ»



فكان أقرب الأعمال إلى الخلوص من الشوائب ومحيطات الأعمال. لذا كان الثواب عليه بأضعاف لا تدخل تحت حصر ولا عد. كما جاء في الحديث القدسي: «كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام، فهو لي، وأنا أجزي به» (رواه البخاري ومسلم وغيرهما)، ومصداقا لقوله عز من قائل: ﴿إِنَّمَا يُوقِ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (النجم: ١٠) لما يشتمل عليه الصوم من درجات ومراتب الصبر وشدته.

إن ما يترتب على الصوم من كبج جماع الشهوات وحرمان كثير المألوفات لهو وسيلة إلى غاية نبيلة، هي قيادة النفس وامتناع زمامها وكفها عن الأهواء والنزوات، فالصوم تدريب على سيادة النفس وقيادتها، حيث يجعل الصائم يصبره على صومه طائعا مختارا، كي يصبح غدا أقدر على الصبر والمصابرة في اليأس والضراء وجبن البأس، وكما تعلم الصائم من صومه كيف ينتصر على نفسه اليوم، فلقد أصبح به أقدر وأقوى على أن ينتصر على عدوه غدا.

إن شريعة الصوم أشبه بشجرة جذعها الصبر، تثبت على جوانبه أغصان من الشكر، وتعلوها أوراق وثمار يائفة من الفكر والذكر والخلق الحسن، وتلك هي حقيقة التقوى التي تأمر بالكف واجتناب المحرمات، كما تأمر بالإقبال على الله بما يجب ويرضى.

فالصوم تخلية وتخليية وليس تخلية فتيل، فلم يعمل فقط على إغلاق منافذ الحس عند الصائم وستر صوت الهوى في نفسه، لكنه في مقابل هذا يعمل على فتح مسالك الروح، وإظهار وتمكين لكلمة الحق والهدى. ولقد وضع الإسلام مناهج محددة ورسم خططا مفصلة في تحقيق هذا، فجعل

شهر رمضان موسما لتفكك الروح من عقالها، وانتشارها لها في أفاق البذل والسخاء والإيتار، كما كان حال النبي ﷺ في صومه؛ فلقد كان ﷺ أجود ما يكون في رمضان، وكان أجود بالخير من الوبح المرسله، (متفق عليه).

والصائم في رمضان ينتقل في فضائل كريمة ويسرح في جنان القرب والمساواة، حيث ينتقل من فضيلة الصبر إلى فضيلة الشكر اتباعا لإرشاد القرآن حين قال ﴿وَلَمَّا كُمُتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وأخذت روحه تسلك مدارج الذكر والجلال بعدما رسم لها الإسلام طريقته في قوله ﴿وَلْيُكْفِرُوا بِاللَّهِ عَمَّا كَفَرُوا هَذَانِكَ﴾ (البقرة: ١٨٥)، فأخذت تاجي وتسال وهي تجول في ساحة القرب والجمال ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦).

ثم يختم الصائم رحلة الصيام بإقباله على الله وانقطاعه له من خلال امتكافه في العشر الأواخر من رمضان، مناجيا الله في لياليها بكلامه، ومدارسا لكتابه مع إخوانه، كما كان يفعل المصطفى من البشر محمد ﷺ مع المصطفى من الملائكة جبريل -عليه السلام-، فإن أعظم مناقب هذا الشهر الكريم وأخص المزايا التي تفرد بها عن سائر الشهور هذه الصلة الوثيقة بين رمضان وبين القرآن ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: ١٨٥)، فكان ذلك إشارة للصائمين أن يجعلوا لشهر رمضان من القرآن أوفر الحظوظ وأكثر الأوقات.

تقد كان لصيام رمضان ما يمتاز به عن سائر أنواع الصيام في الإسلام، فلم يترك لأحد الخيرة في تحديد موعد بدايته ونهايته، إنما أمر الله به في موسم معين من العام، وبمقدار محدد من الأيام، وعلى نسق واحد لا يختلف، وجعل الوفاء به على الأمة جمعا، فلم يختص به فردا دون غيره، ولا فئة دون أخرى.

وما يجب أن يدركه الصائمون أن الصوم ليس مجرد رياضة روحية جافة، كما أنه ليس تجربة إنسانية من التراحم والتعاطف في حالات فردية ضيقة، لكنه رباط روحي يصل العبد بالله عز وجل؛ واتصال بينه وبين الأمة كلها، حيث يربط المؤمنين برباط الرحمة والرفقة، ويصهرهم جميعا في قالب واحد من الأخوة والتكافل.

والجانب الاجتماعي في الصيام لا يقل شرفا ولا خطرا عن الجانب الروحي فيه، لأن قواعد الإسلام تربط المؤمن بإخوانه المؤمنين كما تربطه برب العالمين سبحانه، وتجعل من العبادة شعارا للاتحاد يتحول إلى شعور بعد ذلك، هذا الشعور سرعان ما يصبح نارا ونورا، نارا تتأجج وتقوي قلوب الأعداء، كلما رأوهم متحدين متمسكين متآزرين، ونورا يسري في قلوب الأولياء والمحبين، يوسيهم بالحق والمرحمة، ويساندهم على الطاعة والمصابرة، ويحضهم على المسارعة إلى المغفرة وفعل الخيرات، إن الاتحاد والمشاركة في الصوم زمالة في الجهاد، ورفقة في مكافحة الشدائد، وانصهار في بوتقة الاستجابة لأمر الله عز وجل، تعود منه قلوب الصائمين قلبا واحدا في جسد واحد، وهو ما يؤهل له صوم رمضان.